ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 23 أكتوبر 2019

التعقيد المتعاظم

إدغار موران
ترجمة: محمد ياقين

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019
All rights reserved © 2019

التعقيد المتعاظم[1]

إدغار موران

ترجمة: **محمد ياقين**

1- Edgar Morin, La complexité-sphinx (Avant-propos), dans Edgar Morin et Laurent Bibard (sous la direction de) Complexité et Organisations faire face aux défis de demain, Groupe Eyrolles, 2018, pp. IX, XXV

ملخص:

النص، الذي بين أيدينا، عبارة عن تصدير لكتاب صدر سنة 2018 تحت عنوان: «التعقيد والتنظيمات: سبل مواجهة تحديات الغد»[1]. وقد وقع عليه الاختيار بالنظر لجدته وراهنية أطروحته فضلا عن كونه يشكل عصارة امتدت على مدى ستة عقود. فمن خلاله يعيد إدغار موران التأكيد على مجموعة من الأفكار التي تضمنتها عشرات كتبه ومقالاته وحواراته، سواء تلك التي خصصها لطرح قضايا «المنهج» وبسط آليات التفكير المركب، أو التي أفردها للتنظير لمحددات «الطبيعة الإنسانية» أو قضايا السياسة والتربية والتعليم... فعلى امتداد هذا المسار الفكري الطويل، شدد موران على أهمية وضرورة وحتمية تبني منطق «التعقيد»، باراديغما ونظرية ومنهجا وأفقا رحبا للتفكير المركب، إذ يبقى السبيل القويم لتفادي حبائل إغراءات التبسيط ومطبات الاختزال. إن أهمية النص تكمن في كونه نبراسا للنقد الإبستمولوجي للنموذج التبسيطي المهيمن في العلوم الطبيعية، والذي انتقلت «عدواه» إلى حقل العلوم الاجتماعية؛ ذلك ما يتماشى والدفاع عن منطق «تداخل التخصصات»، بل و«العابر للتخصصات» (transdisciplinarité)، الذي أصبح يفرض نفسه أكثر من أي وقت أمام ما تشهده الإنسانية من تحولات عميقة بفعل العولمة والثورات العلمية والتكنولوجية.

1- Edgar Morin, La complexité-sphinx (Avant-propos), dans Edgar Morin et Laurent Bibard (sous la direction de) Complexité et Organisations faire face aux défis de demain, Groupe Eyrolles, 2018, pp. IX, XXV.

النص المترجم:

يزداد الاعتراف بتعقيد عالمنا المادي والبيولوجي والإنساني بشكل متصاعد. ولكن الإقرار ب «التعقيد» هو بمثابة اعتراف بصعوبة الوصف والتفسير؛ هو بمثابة تعبير التشويش الذي يتلبسنا في مواجهة موضوع يتسم بسمات مختلفة متعددة، وبالتعدد الداخلي وعدم التمييز المفرطين، وبالكثير من الروابط الخارجية.

وبالعودة إلى القواميس، يلاحظ أن مرادفات المعقد تحيل على «الشاق والصعب والشائك والمحرج والمرتبك والمتشابك والملتوي والمنشبك، والذي لا يقبل التجزئة أو الفصل والغامض والمُتْعِب. إن استعمال كلمة «تعقيد» تعبر في نفس الوقت عن الارتباك إزاء شيء معين وحيرة المتحدث وعدم يقينه في تحديده وتوضيحه وتعريفه، واستحالة قيامه بذلك، أخيرا. إن الاستخدام الاعتيادي لكلمة «تعقيد» يعني أيضا «أن الأمور ليست بسيطة وليست واضحة، فليس كل شيء أبيض أو أسود، ويجب ألا نثق في المظاهر، وأن هناك شكوكا، وأننا لا نتوفر على معرفة دقيقة. إن كلمة «تعقيد» هي في النهاية كلمة فارغة بمقدار ما توحي به من فيض معنى. ويزداد فراغها بقدر ما تتسع مجالات وهوامش استعمالها.

لذا، فنحن نواجه تحد التعقيد. ويخترق الأخير المعارف، اليومية والسياسية والفلسفية، وقد امتد ليشمل المعرفة العلمية، وهو بذلك يتجاوز الفعل والأخلاق.

انحلال التعقيد

إن عدم القدرة على الإلمام بالتعقيد ومعالجته والتفكير فيه هو نتيجة للنظام المعرفي السائد في حضارتنا. فهذا الأخير يتخذ من الوضوح والتمييز مقياسين للتحقق من صحة كل تصور أو وصف أو تفسير؛ فهو يرسخ نمطا من المعرفة، ناتج عن تنظيم العلم والتكنولوجيا في القرن التاسع عشر، والذي امتد ليشمل جميع الأنشطة الاجتماعية والسياسية والإنسانية. ويعمل في جميع المجالات على تجريد؛ أي اجتثاث موضوع ما من سياقه ومجموعه، وإلغاء روابطه وصلاته ببيئته، وإدراجه في مقصورة تخصص تحطم حدوده، بشكل تعسفي، نسقية (العلاقة القائمة بين جزء وكل) وتعدد أبعاد الظواهر؛ فهو يقود إلى التجريد الرياضي الذي يحمل في حد ذاته انسلاخا عن الملموس من خلال رفض كل لا يقبل الحساب والصورنة؛ فهو يفصل المعرفة ويقسمها بشكل يغدي صعوبة محاولة إدراجها في سياقها ويدفعنا إلى اختزال معرفة المجموعات المعقدة في العناصر التي تشكلها، «فما يعتبر بسيطا هو ما يبدو كذلك من خلال تفكيك المعقد»، كما يقول بياجيه.

وهكذا، فمن خلال عزل و/ أو تجزئة الأشياء، يميل هذا النمط من المعرفة إلى إثقال كاهلنا؛ عن طريق اختزال معرفة المجموعات في جمع عناصرها، فهو يضعف قدرتنا على إعادة تجميع معارفنا؛ وبشكل عام، فهو يعزز قدرتنا على الفصل على حساب إضعاف قدرتنا على ربط المعلومات والمعطيات والمعارف والأفكار. والحال أن ملاءمة معرفة ما لا تتحقق بعيدا عن قدرتها على وضع موضوعها في سياقه، وإذا أمكن، في النسق العام التي تشكل جزء منه، عن طريق السير ذهابا وإيابا، دون توقف، لإنجاز عمليات فصل ووصل، تحليل وتركيب، تجريد وإعادة انغراس في الملموس.

بكل تأكيد، تنطوي كل معرفة على درجات تبسيط متفاوتة؛ بمعنى أنها تستبعد عددا من سمات الظاهرة قيد النظر، باعتبارها غير دالة أو احتمالية أو سطحية. لكننا نتعود على التبسيط المفرط، الذي يرفض كل ما لا يتلاءم مع ترسيمة الاختزال والفصل وإلغاء السياق.

الذكاء الأعمى

هذا هو مصدر الذكاء الأعمى الذي غزا جميع القطاعات التقنية السياسية والاجتماعية الفنية. وهكذا تصبح العلوم الاقتصادية، وهي العلوم الاجتماعية الأكثر تقدما رياضيا، أكثر العلوم المتخلفة اجتماعيا وإنسانيا عندما يتم فصلها عن الشروط الاجتماعية والتاريخية والسياسية والنفسية والإيكولوجية، والتي لا تنفصل عن الأنشطة الاقتصادية. يقول موريس أليس (Maurice Allais): «في الاقتصاد، كل شيء يعتمد على كل شيء، كل شيء يؤثر في كل شيء». ويقول فون حايك (von Hayek): «لا يمكن لشخص أن يكون عالم اقتصاد كبير، إذا اختزل كل شيء في علم الاقتصاد، بل إنه يذهب إلى أن هذا الصنف «يصبح ضارا ويمكن أن يشكل خطرا حقيقيا»». وهنا يكمن السبب في تفاقم عدم قدرة الاقتصاديين على توقع مجرى الاقتصاد والتنبؤ به حتى في المدى القصير. لقد بنى علم الاقتصاد الكلاسيكي تخصصه على نظام مغلق، وأقلية فقط من الاقتصاديين «المنفتحين» من بيرو (Perroux) إلى باسيت (Passet)، عملت على كسر هذا السياج. يبرز مورغنسترن (Morgenstern) أن مفهوم الناتج القومي الإجمالي يسجل بصورة عمياء أي خلل في النسق، باعتباره زيادة إيجابية (يزداد الإنفاق الصحي بفعل تفاقم أضرار انبعاثات الدخان الناتج عن المزيد من استهلاك الوقود نتيجة تفاقم الازدحام المروري).

هناك علاقة عكسية بين روائع الأعمال الناتجة عن العقلانية التقنية، مثل الجسور الكبيرة والأنفاق الكبيرة والسدود الضخمة والطائرات الأسرع من الصوت والصواريخ الفضائية، والعمى تجاه التبعات الإنسانية والاجتماعية والثقافية لهذه الأعمال. فإلغاء السياق يرسم حدود عقلانية مغلقة، أو عقلنة. هكذا، بسطت العقلانية المجردة والأحادية البعد هيمنتها على الكوكب. ففي إفريقيا، مكنت ما يسمى بالزراعة

«العقلانية» من تطوير مزارع أحادية كبيرة ذات مردودية عالية، لكنها دمرت الزراعة المعيشية، لتدمر نسيجا كاملا من العلاقات الاجتماعية الملموسة، وتزج بمجموعات سكانية في أتون مدن الصفيح أو الهجرة. لقد خطط المهندسون لسد أسوان بشكل فعال للغاية لإنتاج الكهرباء وتنظيم نهر النيل، لكن السد احتفظ ببعض الطمي الذي قام بتخصيب الوادي السفلي وبعض الأسماك التي تغذي ساكنة الضفاف. هنا، كما هو الحال في أي مكان آخر، تم تجاهل السياق الإنساني والثقافي الإنساني في البرامج التقنية الضخمة المصممة بشكل منعزل. لقد سبق لشركائي المتعاونين كلود فيشلر وبرنارد بيلارد دراسة إنشاء مجمع Fos-sur-Mer»»، والذي تم دون إيلاء أدنى اعتبار للظروف البيئية والشكوك الاقتصادية[2].

وفي مجال الطب، تم إحراز تقدم كبير، والذي لم يتوقف، على مستوى القضاء على الأوبئة أو الحد منها، وإنتاج المزيد من اللقاحات وزرع الأعضاء والتقدم المذهل في الجراحة، والخطوات الأولى للطب التنبئي، لكن الإفراط في التخصص الطبي يفرز آثارا ضارة متعددة: يتم علاج الأعضاء بشكل مستقل عن بعضها البعض وبشكل مستقل عن الجسم: وبالتالي، فالعلاجات التي تشفي عضوا ما تتسبب غالبا في آلام جديدة في أعضاء أخرى، وبسبب نفس المفعول الناتج عن إلغاء السياق تترتب عن استعمال الأدوية ما يعرف بالأمراض «الناتجة عن تدخل طبي» (iatrogènes). ويتم تصور الجسم نفسه ككيان جسدي مغلق لا يقتضي عدا علاج كيميائي. وهكذا يتم فصل الجسم عن النفس، ويتم التعامل مع النفس في حد ذاتها عن طريق الطب النفسي أو التحليل النفسي بشكل مستقل عن السياق الأسري والسياق الثقافي والاجتماعي. إن الطبيب العام، الذي تتاح له الفرصة لربط الأعضاء بالجسم والجسم بالنفس وهذه الأخيرة بالبيئة الأسرية والثقافية، كان يلعب هذا الدور في العصور القديمة، عندما كان يعرف شخصية ونفسية وأسرة من يتحمل مسؤولية علاجهم، والذين كانوا يحظون بمتابعته لحالاتهم. أما اليوم، فلم يعد الممارس في مجال الطب العام في المدن قائد الأوركسترا الذي يعرف توزيع كل الآلات، بل ممارسا في مستوى أدنى يرسل زبناءه، الذين تكون لا تتوفر لديه بخصوص حالتهم، عدا معرفة سريعة وسطحية، إلى المتخصصين وإلى المؤسسات التي تتوفر فيها أجهزة الراديو والفحص بالصدى. أكيد أن هناك رد فعل ما قد بدأ ينجز في هذا المجال، كما هو الحال في العديد من المجالات الأخرى، إذ نشهد انتشار مفهوم يقترن فيه النفسي والجسدي»، والذي لا يقتصر على فحص التأثير العقلي لأمراض الجسم بل يطال أيضا الآثار الجسدية للاضطرابات العقلية. ونشهد أيضا انتشار العلاج النفسي للعائلة أو المجموعة. لكننا لسنا قادرين حتى الآن على التفكير في آلامنا، منهجيا، من زاوية تداخل خصائصها البيولوجية والنفسية والاجتماعية (bio-psycho-sociaux). فنحن لم ننشئ بعد المؤسسات وطرائق التفكير التي من شأنها أن تسمح بإنجاز هذه الترابطات.

2- Bernard Paillard, avec la collaboration de Claude Fischler, *La Damnation de Fos*, Seuil, 1981

ففي العديد من المجالات، يحطم الذكاء المقطعي والمجزأ والميكانيكي والمنفصل والاختزالي مركب العالم إلى أجزاء منفصلة، يجزئ المشاكل ويفصل المترابط ويحول متعدد الأبعاد إلى أحادي البعد. إنه، في نفس الوقت، ذكاء قصير النظر ولا يرى الأشياء القريبة ومصاب بعمى الألوان وأعور؛ وعادة ما ينتهي به المطاف بإصابة بالعمى. فهو يقضي في المهد على إمكانيات التفاهم والتفكير، ملغيا أيضا أية فرصة تصحيحية للحكم، أو وجهة نظر طويلة الأمد. وبالتالي، فكلما أصبحت المشكلات متعددة الأبعاد، ضعفت القدرة على التفكير في أبعادها المتعددة؛ وكلما أصبحت المشكلات كوكبية، كلما تراجع التفكير فيها؛ وكلما تفاقمت الأزمة، تفاقم العجز عن التفكير في تفاقمها. وباعتباره غير قادر على تصور السياق والمركب الكوكبي، يغدو الذكاء الأعمى فاقدا للوعي وغير مسؤول. فهو يؤمن بأهمية ووثوقية أنشطته المُبَرْمِجة التي تتجاهل في الغالب شروط وإكراهات وإمكانات سياق هذه الأنشطة.

كل هذا يؤدي إلى كوارث بشرية لا يخضع ضحاياها ونتائجها لتعداد أو تأمين، مثلما هو شأن ضحايا الكوارث الطبيعية.

يخضع الفكر التبسيطي لهيمنة الانفصال والاختزال والحساب. فهو لا يتصور عدا أشياء بسيطة تخضع لقوانين عامة. كما أنه ينتج معرفة مجهولة تتعامى عن كل سياق وكل تعقيد، ويتجاهل المفرد والملموس والوجود والذات والعاطفة وأشكال المعاناة والمتعة والرغبات والغايات والروح والوعي. فهو ينظر إلى الكون والحياة والإنسان والمجتمع بوصفها آلات حتمية تافهة، إذ يمكن توقع كل المخرجات إذا حصلت المعرفة بكل المدخلات. كما أنه ينتقي دائما التفسير الأبسط باعتباره حاملا للحقيقة، ولا يتم ذلك بطريقة تتبنى نهج نصل أوكهام (rasoir d'Occam) [مذهب يقوم على مبدأ الاقتصاد والتبسيط]، بل اعتمادا على منشار كهربائي يشذب المعقد من حيث المبدأ. ولكن، كما يقول موسيل (Musil) في الإنسان بلا صفات «[...] بحكم أي مبدأ يجب أن تكون القيمة التفسيرية للواقعة النفسية أكبر كلما كانت أبسط؟».

إن تطبيق تفكير تبسيطي على الظواهر الإنسانية يؤدي إلى أفكار أكثر جاذبية. وكما لاحظ ذلك فيتجنشتاين، «إن تفسيرات الاستعمالات المسماة بدائية أكثر فظاظة بكثير من تلك الاستعمالات نفسها. [...] وبالمثل، فالطريقة التي يعرض بها فريزر (Frazer) التصورات السحرية والدينية للرجل للبشر ليست مرضية؛ فهي تقدم هذه المفاهيم بوصفها أخطاء[3]». وفي الواقع، يؤدي التبسيط الشاذ لهذا النوع من التفكير حتما إلى استنتاج مفاده أن كل إيمان وكل أسطورة وكل مذهب ينتمي إلى حضارة غير الحضارة الغربية هو نسيج من الأخطاء والخرافات؛ ففي العقود الأخيرة فقط، مع تدهور أوروبا والأزمة المثمرة التي ضربت العقلنة الأوروبية، توقفنا عن اختزال الخطأ فيما لا ينتمي إلى نسقنا التبسيطي للمعقولية.

3- Ludwig Wittgenstein, Remarques sur « Le Rameau d'or » de Frazer, trad. Jean Lacoste, Actes de la recherche en sciences sociales, vol. XVI, n° 1, 1977, p. 35-42

وبشكل مترابط، يتسم الذكاء المعطل بفعالية رهيبة. فعن طريق إلقائه بالمعقد في سلال قمامته، والاحتفاظ فقط بالقابل للقياس والقابل للحساب والخوارزمية، وعن طريق عزل الأشياء الخاصة به بإخضاعها لتجاربه، فقد أباح وطور التلاعب، وهذا هو مصدر انتصاراته التقنية التي لا حصر لها، وهنا يكمن، بالتالي، جهله أيضا بالآثار المنحرفة التي يمكن أن تولدها هذه الانتصارات.

وهكذا يصبح التبسيط مرتبطا ارتباطا وثيقا بالتلاعب، وهو نفسه يرتبط بفكرة، أو بالأحرى بأسطورة غزو الطبيعة وسيطرة الإنسان على الكون. يتعلق الأمر بمبدأ الصعود، تبعا لهايدغر (Heidegger). وكما قال ميشيل سيريس (Michel Serres)، فالقياس يؤدي إلى التحكم، والذي يجب أن نضيف إليه كونه يؤدي إلى الازدراء، بالمعنى المزدوج للكلمة (تجريد الواقع واحتقار كل شيء لا يندرج في مشروع التحكم).

وبالتالي، فقد شكلت «باراديغم[4]» الانفصال / الاختزال، الذي ينطوي في حد ذاته على مبدأ الانتقاء/ الرفض. إن هذا الباراديغم، الموجود بطريقة غير مرئية في ذهن الشخص الذي خضع لتأثيره، يحظر حل المركبات من أجل إعادتها إلى عناصرها الأساسية، وتذويب غير القابل للصورنة بغاية اختزال الواقع في هيكله الرياضي. فهو يلزم بفصل الموضوع عن البيئة، والنظام عن الفوضى، والتخصصات في العلوم والعلم عن الفلسفة. فاختيار الانتقاء يقع على كل ما يدرج في النظام والكمية والقياس. ويلغي، في المقابل، الوجود والفرد والمفرد. لقد ساد في المعرفة العلمية والتقنية والسياسية. وعلى الرغم من الثورات الهائلة التي عرفتها علوم القرن العشرين، وعمليات الاستقلال الداخلي الذي ألزم، إمبراطورية عجوز من هذا القبيل، بالاستسلام للمقاطعات، وعلى الرغم من الوعي المتعدد، والذي لا يزال مبعثرا، فهو لا يزال يتربص في الخفاء ويؤثر بدون قيود في معظم العقول.

وفي الواقع، فقد تم ربط التطور الخارق للعلوم الفيزيائية وتطبيقاتها التقنية (استخدام الطاقة النووية، غزو الفضاء) بعجز لا يصدق على مستوى النظر في الحقائق الإنسانية المعقدة وإتاحة الفهم المتبادل داخل النوع البشري، للاستجابة لمشاكل الإنسان، مثل الحرب والمجاعة والفقر. لقد ارتبط تطور العلوم الفيزيائية بتطور التخلف الأخلاقي للفكر التقني-العلمي. وهذا هو المقصود بعبارة this time is out of joint. ودعونا نترجم الصيغة الشكسبيرية بشكل تقريبي وتعسفي: هذه الزمن هو زمن الانفصال، ولم يعد بإمكاننا القيام بالوصل.

4- ما نقصده بمفهوم الباراديغم قد تم تحديده وسبره في الجزء الرابع من كتاب المنهج،

La Méthode IV.. *Les Idées*, III, 3, Seuil,1991, p. 211-238

وسنقتصر هنا على هذا التعريف) ص» :(213.يحتوي الباراديغم ،بالنسبة لكل خطاب ينجز تحت سلطته ،على المفاهيم الأساسية أو المقولات الرئيسة للمعقولية ،بالإضافة إلى نمط علاقات منطقية جاذبة / طاردة) الاقتران أو الانفصال أو التضمين أو غير ذلك (بين هذه المفاهيم والمقولات.«

ومع ذلك، فالعلم معقد بطبيعته، لأنه ينطوي في نفس الوقت على إجماع على قيمه وصراع داخلي بين النظريات؛ فهو يمشي على أربع أرجل منفصلة تتعارض بشكل تكاملي (العقلانية والأمبيريقية والتخييل والتحقق). فهذين الحوارين المعقدين والمتداخلين يكمنان خلف ما حققه من إنجازات هائلة، بما في ذلك التقدم النهائي الذي عرف اهتزازا وتسبب في النهاية في انهيار الفصل والاختزال. ويبدو أن التبسيط قد تغلب على التعقيد، مثلما تغلبت روما على اليونان، ولكن من المعروف أن العقل اليوناني هزم، في النهاية، المنتصر عليه، البربري ثقافيا. لقد فشل علم التاسع عشر في مسيرته الظافرة لتحقيق التوحيد والتبسيط: ففي خضم هوس بحثه من لبنة أولية للقانون الأعلى للكون، اصطدم في نهاية ما حققه من تقدم، ودون أن يكون قادرا على استيعابه، بالتعقيد الذي استبعده من مبدئه.

وقد كانت الفلسفة، من حيث المبدأ، موجهة لمواجهة تعقيد المشاكل الأساسية المعرفة. فهي مفتوحة على المعرفة برمتها، وبالتالي فهي ليست مجزأة. لكنها في حد ذاتها مجزأة، وليس لديها سوى اتصال نادر بعالم الحياة وحياة العالم. إن المعارف الجديدة والمثيرة المنحدرة من العلم والمتعلقة بالكون والأرض والحياة والإنسان لا تؤول إلى مطحنتها التي تدور في فراغ.

مأساة العلوم الأنثربولوجية -الاجتماعية

لقد تم اكتساح العلوم الإنسانية من خلال نموذج الفيزياء الكلاسيكية، وكل من قاوم هذا النموذج بدا متخلفا. والحال أن هذه الجزر المقاومة الرجعية هي بالضبط التي تتوافق اليوم مع طليعة التعقيد الذي تفرزه العلوم الطبيعية.

تجدر الإشارة، أولا، إلى أن العلوم الإنسانية قد خضعت منذ ولادتها لعلامة الانقسام الكبير الذي فصلها عن العلوم الطبيعية، والتي حالت دون أية إمكانية للنظر في المركب البيو أنثربولوجي الذي يشكل الواقع الإنساني. وانطلاقا من الستينيات، ومن خلال التطورات الأخيرة لتصور متعدد الأبعاد للأنسنة في دراسات ما قبل التاريخ، لكن حصرا داخل هذه الدراسات، شرعنا في إقامة ربط يهم: الدماغ/ النفس، الطبيعة / الثقافة، التطور البيولوجي (التشريحي، الوراثي)، النمو العقلي / الاجتماعي / الثقافي.

وقد أدى غزو مبادئ العلوم الكلاسيكية إلى إحداث تقطيعات وتقسيمات مجردة واعتباطية داخل المركب النفسي-الاجتماعي -التاريخي الخاص بالإنسان. لقد تم إفراغ ما يسمى بالسوسيولوجيا العلمية من كل حمولة تاريخية أو سيكولوجية، وقد أفرغ علم النفس السلوكي الموضوعي كل كائن إنساني من أبعاده الذاتية والثقافية والتاريخية، بل إننا انتهينا إلى المفارقة البنيوية، التي تشتغل على مفهوم الإنسان وبالطبع على فكرة الذات.

على الرغم من إفراغ التاريخ في لحظة معينة من مفهوم الحدث والعوارض و«الرجال العظماء»، فقد تم إثراءه في العمق. وهكذا، ففضل الاتجاه الذي كشفت عنه مدرسة الحوليات في فرنسا لا يتجلى، كما كان يعتقد، في التخلص من الحدث والعارض، بل في كونه أصبح يكتسي أبعاد متعددة من خلال تضمينه الركيزة الاقتصادية والتقنية والحياة اليومية والمعتقدات والطقوس والمواقف تجاه الحياة والموت في حقبة ما. فهو يبدأ بالتعرف على الحدث والعارض، اللذين تم الكشف عنهما منذ ثلاثين سنة في علوم الكوسمولوجيا والفيزياء والبيولوجيا، وهو أمر يدخل في باب المفارقات.

هي قطاعات محيطية في دراسة الحضارات البعيدة، وقد حظي تعقيد نسيجها الأنثربو اجتماعي بالاحترام. لم يدرس علماء الحضارة الصينية، من ماسبيرو إلى سيلفان ليفي، وعلماء الإسلامولوجيا الكبار، من ماسينيون إلى بيرك، اللغة فحسب، بل درسوا أيضا مجتمعا وتاريخا وفلسفة ودينا، أو أديانا، وحاولوا وضع تصور للروابط المتبادلة لهذه المجالات. ولم يكن هاجس هذه الأصناف، المدرجة في دراسات الحضارات، تحقيق معرفة موضوعية لعالم أجنبي وحسب، بل كانت مدفوعة أيضا بالرغبة في الفهم الداخلي، مثلما فعل فرانسوا جوليان بالنسبة للفكر الصيني.

وفي الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وبعد أن أصبحت أوروبا مركز الهيمنة على الكوكب، سلط النقد الذاتي المنبثق من العقلانية الأوروبية الضوء على المركزية الغربية لنظرتنا للعالم. لقد اعتبر لوسيان ليفي برول في بداية القرن العشرين العقلية «البدائية» طفولية وصوفية ولاعقلانية، ولم يكن قادرا على إدراك العقلانية الاستثنائية التي تجسدها هذه العقلية في استراتيجيات الصيد وصنع الأدوات وبناء القصور. وقد قام ليفي ستراوس وجولاه (Jaulin)، وآخرون كثيرون بمراجعة جذرية أعادت الاعتبار للثروات الإنسانية والفكرية والثقافية التي راكمها الإنسانية في العصور القديمة.

وفي السوسيولوجيا، وعلى الرغم من وجود تقليد يحاول من خلاله سوسيولوجيون التفكير في عصرهم بانخراطهم فيه، فخلال بضعة عقود كان يتم اقتناص كل شيء ليس حتميا أو غير قابل للقياس الكمي أو غير قابل للتحويل إلى فئات سوسيو اقتصادية. فحتى يومنا هذا، تقوم المؤسسة السوسيولوجية بكبح الإثنوميتودولوجيا التي تفرض على الباحث التحقيق، أيضا، في بحثه الخاص ودراسة الكائنات البشرية، ليس باعتبارها أشياء متلاعب بها، أو كائنات معتوهة ثقافيا، بل بوصفها أشخاصا ذوي خبرة ومعرفة، جزئية بالتأكيد، ولكنها ليس بالضرورة مشوهة. وسوف يصبح من الواضح أكثر فأكثر أنه لا وجود لسوسيولوجيا يمكنها أن تعلو، مثل الشمس، على المجتمع. إنها جزء من هذا المجتمع، والمجتمع يوجد داخلها، باعتباره كلا.

على أي حال، كانت هناك مقاومة سوسيولوجيين/ كتاب/ مفكرين (فريدمان وآرون وتورين وكاستل) لغزو السوسيولوجيا الكمية، إذ عملوا على استغلال معطياتها، ولكن مهمتهم استهدفت فهم عصرهم والتفكير فيه.

والأكثر عمقا، تلك المقاومات التي أنضجها التقليد الألماني المتمثل في «علوم العقل»، والتي بموجبها تمر كل معرفة في مجال التاريخ أو السوسيولوجيا بتأويل للذات العارفة، إذ تبقى مشكلة الفهم بالنسبة إليه، بمعنى نمط معرفة ذات لذات، موضوعا خاصا بالعلوم الإنسانية.

وأخيرا، أصبحت المعرفة العلمية، التي كانت تعتقد بوجود برج عاجي متعالي عن الاجتماعي، موضوعا للتاريخ والسوسيولوجيا، واللذين يضعان تطور الأفكار العلمية في سياقها التاريخي والاجتماعي، ويدرسان شروط ظهور النظريات، ويسلطان الضوء على الحياة الملموسة للمختبرات والأوساط العلمية. مثل هذه الدراسات تتيح إمكانية تصور العلاقة بين استقلال وتبعية النشاط العلمي، الخصائص التاريخية والخصائص المتعالية عن تاريخ النظريات، ولكن في هذا المجال، مثلما هو الأمر في غيره، يخضع السوسيولوجيون لقانون حديدي للبديل التبسيطي: بالنسبة إلى البعض، تتجاوز حقائق العلم الشروط التاريخية لتشكيلها؛ وبالنسبة إلى آخرين، يمكن اختزال العلم في هذه الشروط نفسها، في حين يختزلها البعض الآخر (معتقدين أنهم يزيلون الغموض عنها) في الأيديولوجيا.

العالم الجديد

لم يتحقق غزو مبادئ العلوم الكلاسيكية للعلوم الإنسانية والاجتماعية بشكل كامل. ومن المفارقات أن العلوم الطبيعية في طريقها إلى العثور على إشكالية التعقيد التي تمكنت العلوم الإنسانية من الاحتفاظ بها هنا وهناك. إن الفتوحات الأخيرة للعلوم الطبيعية، الفيزيائية بشكل خاص، تقوض باراديغم التبسيط: التعقيد يعود ليغزو العالم عبر الطرق التي استبعد بها. تكتشف معظم العلوم مجالات متنوعة حيث تغدو البيانات البسيطة خاطئة و«حيث يصبح التحيز لصالح القوانين ضارًا»[5]. نشهد عودة مواضيع عامة مثل الكون وطبيعة الإنسان، والتي تعرضت سابقا للفرم، لشهد تفككا في نهاية المطاف، لأنها تقع ضمن ما يسمى بالحس الساذج ما قبل علمي، لأنها تحتوي في الواقع في داخلها على تعقيد لا تطاق.

لقد تمكن العلم الكلاسيكي من معالجة المشكلات التي تعتبر عواملها المهيمنة خاضعة لقوانين المنطق الكلاسيكي وقابلة للقياس في معظمها. وقد وجد نفسه محاصرا أمام المشاكل التي تتسبب في تحدي هذا المنطق، وحيث يكون القياس لا يقينيا.

5- Friedrich Hayek, *Théorie des phénomènes complexes*, Cahiers du C.R.E.A n° 13, septembre 1989

فليس القابل للحساب والقابل للقياس عدا جزء ضمن غير القابل للحساب وغير القابل للقياس. وفقدان **نظام العالم** بالنسبة إلى العلماء محبط، مثلما هو التخلي عن فكرة وجود الله بالنسبة إلى المؤمن. وفي الواقع، لقد كان **ترتيب** العالم من ضمن البقايا العظيمة للكمال الإلهي.

هناك انهيار إبستمولوجي يطال النزعة الذرية والعناصرية والوضعية، المنطقية وغير المنطقية، انهيار اليقين المطلق القديم. يقول الشاعر صلاح ستيتياي (Salah Stétié): «الشيء الوحيد المؤكد تقريبا في هذا الحطام هو علامة الاستفهام.»

ووفقا لتعبير هيجل، المعاد تحيينه بشكل غريب، ولكن بطريقة جديدة، «فكل الأفكار والمفاهيم التي استمرت حتى الآن، وروابط العالم ذاتها، قد انحلت وانهارت في ذاتها مثلما هو الأمر في رؤية الحلم «.

عالم ينهار، والعالم الجديد لم يظهر إلى حيز الوجود. نشهد ثورة، لكنها لم يكتمل.

فقدان المؤسسات

ولم تقتص تبعات ما يشهده النظام من تمزق وتحول، واكتساح الفوضى وانبثاق التنظيم وعدم اكتمال المنطق، الذي أصبح أداة ولم تعد أداة تفكير ذات سيادة، على حدوث ثغرات هائلة في نسق المعقولية الكلاسيكية، ولم يقتصر على تحطيم أسس هذه المعقولية، بل إنها تثير أزمة أسس.

وبينما تم التأكد، في نهاية القرن الماضي، من فكرة مفادها أن العلم قد وجد الأساس المنطقي التجريبي اليقيني لمقولاته، يبدو الآن أنه لا يكفي التحقق التجريبي أو التحقق المنطقي لتأسيس أساس يقيني لنظرياته. وقد بين بوبر (Popper) عدم كفاية التحقق التجريبي، وبين غودل (Gödel) قصور التحقق المنطقي. فاللايقين الأساسي يكمن خلف كل اليقينيات الموضعية. وبدلا من الأسس المفقودة، لا يوجد فراغ، بل «مزهرية (Popper)»، «بحر من الطين السيمونطيقي» (Mugur-Schächter) الذي تنهض عليه ركائز المعرفة. إن أزمة الأسس العلمية (التي لا يعرفها سوى القليل من العلماء) تتقاطع مع أزمة الأسس الفلسفية التي أعلن عنها نتشه.

وفي أزمة الأسس وتحدي تعقيد الواقع، أيضا، تحتاج كل المعارف إلى إدراك [أسسها ونتائجها] والتفكير فيها وموقعتها وأشكلتها.

التعقيد المتعاظم

كلما تطور التفكير كلما واجه التعقيد.

ينبثق المعقد [المركب]، باعتباره تعبيرا عن استحالة التبسيط، حيث تزعج الاضطرابات والشكوك إرادة المعرفة، وحيث تتفكك الوحدة المعقدة إذا اختزلت في عناصرها، وحيث يضيع التمييز والوضوح في السببيات والهويات. وحيث تحرف التناقضات مجرى التفكير، وحيث يفاجئ الشخص الملاحظ وجهه في موضوع ملاحظته.

إن المعقد هو ما لا يقبل الاختزال، وما لا يقبل التوحيد التام وما لا يقبل التنويع بالكامل.

والمعقد هو ما يتم نسجه بشكل مشترك، بما في ذلك النظام / الاضطراب، واحد / متعدد، الكل / الأجزاء، الموضوع / البيئة، الموضوع/ الذات، الوضوح / الغموض.

والمعقد يعني عدم القدرة على البرهنة المنطقية والربط التكاملي لحقيقتين متناقضتين.

كل شيء معقد، الواقع المادي والمنطق والحياة والكائن البشري والمجتمع والمحيط الحيوي والعصر الكوكبي...

ولا يقتصر التعقيد على الظواهر السطحية؛ فالمبادئ التي تحكمها معقدة؛ والعالم السفلي والعالم الخلفي عينهما معقدان: فالتعقيد لا يقتصر على التفاعلات والتفاعلات ذات الأثر الرجعي، ولا يوجد فحسب في الأنساق والتنظيمات، بل يشكل أساسا للعالم المادي.

إننا نواجه التعقيد، الذي لا يطاق، على مستوى الوجود، والتعقيد غير القابل للتحمل الذي يخترق العالم.

هناك قطبان فيما يخص التعقيد: قطب أمبريقي وقطب منطقي.

القطب الأمبريقي هو قطب الاضطرابات والمخاطر والتشابكات والتفاعلات ذات الأثر الرجعي التي تخترق الظواهر.

والقطب المنطقي هو السببية ذات الأثر الرجعي، والتناقضات التي لا مفر منها، والتي تؤدي إليها المعرفة العقلانية الأمبريقية وحالات عدم القابلية للبرهنة ضمن الأنظمة المنطقية لتعقيد الهوية.

وينبع عدم اليقين من أحد القطبين. ولا يتعلق الأمر فقط بمعرفتنا بالظواهر، وقدرتنا على التنبؤ، بل يهم بشكل أعمق الطبيعة والواقع، كما أننا ملزمون بمراجعة بداهاتنا، بما في ذلك الزمن والمجال. وهكذا يقود الاعتراف بالتعقيد إلى لغز العالم.

لذلك، يتم التعرف على التعقيد من خلال السمات السلبية: لا يقينيات، تراجع المعرفة الحتمية، عدم كفاية المنطق. ويتم التعرف عليه من خلال السمات الإيجابية: النسيج المشترك حيث يترابط الواحد والمتعدد، والكوني والمفرد، النظام والفوضى والتنظيم.

وهناك العديد من التعقيدات، من بينها التعقيدات الفيزيائية البحتة، والبيولوجية الصرفة، والأنثربو اجتماعية البحتة، وتعقيدات العصر الكوكبي في العالم المعاصر.

التحدي

لذا، فالتعقيد هو بمثابة تحد وليس حلا.

وهناك نوعان من التحديات الرئيسة المتزامنة والمترابطة في الغالب، والتي يبقى مصدرها التعقيد:

1. كيف يتم الربط؟

هو نفس التحدي المتمثل في عقل وفهم حالات التعقيد بما أن لفظ (intelligere) يعني الربط بين، و(com-prhendere) يعني الفهم المشترك:

- ربط الحدث أو العنصر أو المعلومة بالسياق؛ والربط احتمالا بين مختلف السياقات.

- ربط الجزئي بالعام وربط العام بالجزئي، تبعا للمقتضيات التي صاغها باسكال (Pascal) قبل أكثر من ثلاثة قرون: «كل الأشياء هي نتاج أسباب وبمثابة مسبب، تدعم وتتلقى الدعم، وسيطة ومباشرة، وكلها تتداخل من خلال رابط طبيعي غير محسوس، والذي يربط بين البعيدين والأكثر اختلافا، وأؤكد أنه من المستحيل معرفة الأجزاء دون معرفة الكل، أو معرفة الكل دون معرفة الأجزاء بشكل خاص»؛

- ربط الواحد والمتعدد، الكوني والمفرد، الاستقلال والتبعية؛

- ربط العنصر المنظم بالتنظيم وربط التنظيم بما ينظمه؛

• ربط النظام والاختلال والتنظيم مع الاعتراف بنقائضهم؛

• ربط المنفصل بغير المنفصل، المنقطع بالمتواصل، الفرد بالنوع، الفرد بالمجتمع. ففي العالم التي كشفت عنه فيزياء الكوانطا لا يجب إخفاء غير المنفصل، بل إعادة مواجهته مع المنفصل الذي يفقد بداهته ويغدو مشكلة. إن مشكلة التعقيد لا تكمن في استبدال القابلية للفصل عن عدم القابلية للفصل، بل في إدراج إحداهما في الأخرى؛

• ربط ما هو متناقض أو متعارض بمجرد ظهور التناقض أو التعارض باعتبارهما متكاملين؛

• ربط المنطق وما يتجاوز المنطق؛

• ربط الملاحظة بالملاحظ والتصور بواضعه والمعرفة بالذات العارفة.

هذا يعني بناء تصور للمركب (ما هو منسوج في مجموعه) في التنظيمات وبين التنظيمات، في الأفراد وبين الأفراد، بين الأفراد والمجتمعات وبين المجتمعات.

ويعني إعادة بناء العلاقات وصلات التبعية والتمفصلات وأنماط والتضامن والتنظيمات والكليات.

ويعني التموضع داخل شرط معالجة التعقيد التنظيمي والتعقيد الحي والتعقيد البشري (البيو-أنثروبو-سيكو-سوسيو-تاريخي)

2. كيف تتم مواجهة التحدي المنطقي؟

كيف تعالج المفارقات والتناقضات التي تفرزها سيرورة البحث العقلاني؟ كيف يتم قبول التناقضات وعلاقات التنافر المنطقية؟ كيف يتم الربط بينها؟ كيف يتم دعم المنطق بينما يتم تجاوزه؟ كيف يتم دمج ما لم يخضع للبرهنة؟

إن المشكلة لا تكمن في الكم الهائل للمعرفة، بل في تنظيمها.

لا تكمن المشكلة في فتح الحدود بين التخصصات بقدر ما تتمثل في تحويل ما يولد هذه الحدود.

(نرى هنا اختلافا في الطبيعة مع التعقد (complication): فالتعقد يشبه خصلة شعر يمكن فكها إذا كان العامل يتوفر على وسائل ملاحظة وتحليل تتسم بدقة كافية، وعلى ما يكفي من الصبر والكفاءة، وما

من شأنه تمكينه من إعادة اكتشاف عناصر بسيطة ومفاهيم بسيطة؛ والتعقيد يتطلب شكلا آخر من التفكير لمفصلة المعرفة وتنظيمها.)

المنهج

لذلك نحن بحاجة إلى منهج يصل المنفصلين ويواجه اللايقين، ويتغلب على أوجه القصور المنطقية إذ يمكنه:

- استعادة أو إعادة بناء أو إعادة تشكيل المجمعات/ الأنظمة والوحدات المعقدة؛
- إدراك انبعاث مباحث الكون والطبيعة والحياة والإنسان، وهي المباحث التي عرفت تفككا؛
- عودة الكائنات والموجودات والأفراد، الذين ألقى بهم العلم الكلاسيكي بهم في سلة المهملات، للظهور من جديد؛
- إرشادنا إلى إصلاح مفاهيمي ضروري.

هو منهج يتجاوز البدائل الناتجة عن الانفصال الكبير الذي يطال بصفة خاصة: الروح/ المادة، التبعية / الاستقلالية، الحتمية/ الحرية، الإنسان/ الطبيعة/ الكون، والتي يستجيب لمطلب هيراقليط: «صل ما يوافق وما يباعد، المنسجم والمتنافر».

لأن الوفاق والشقاق يشكلا نسيج المركب.

إن التحدي كبير وضاغط، إذ تزداد الحاجة إلى فكر يصل، لأن ترابط وشمولية المشاكل ما انفكا يتضخمان، ولأننا نعاني بشكل متزايد، في الوقت نفسه، من الإفراط في تجزيئ وتقسيم المعارف.

إن المنهج التي طورناه خلال مسار طويل هو بمثابة داعم لاستراتيجية التفكير وليست منهجية، أي برنامج للتطبيق. إنه يحمل مفارقة خاصة به: من يفكر وفقا لمنهج التعقيد يفكر بنفسه ويشجع الآخرين على التفكير بأنفسهم.

إنه هم طريقة تفكيرنا في جميع مجالات المعرفة.

ويجب أن يتدخل في تحديد عملية إعادة تأسيس مفاهيمي ويرشد إلى التفكير المعقد.

وسيتعين على التفكير المركب أن يحمل علامة الاختلال والتفكك، وأن يضفي طابع النسبية على النظام والاختلال، وخلق نواة مفهوم التنظيم، والعمل على إعادة تنظيم عميقة للمبادئ التي توجه المعقولية.

إن مشروعا من هذا القبيل يثير مقاومة قوية: فالعقول نشأت على استبعاد الغموض، والرضا بالحقائق البسيطة، وتكريس التعارض المانوي بين الخير ضد الشر، وهو ما نصادفه في كل مكان، بما في ذلك في قمة هرم الجامعة. وكما قال توكفيل» ستحظى فكرة بسيطة، ولكنها خاطئة، على الدوام، بوزن في العالم أكبر من الفكرة الحقيقية والمعقدة».

إن مشروعا من هذا القبيل يؤدي أيضا إلى سوء فهم كبير. فبينما ألح فيه في كتاب «**المنهج**» على فكرة مفادها أن معالجة التعقيد تكشف وتسلط الضوء على الشكوك المحايثة لجميع المعارف، وعلى الرغم من أنني أبرزت أن التفكير المركب ينطوي على وعي بعدم اكتمال الفكر كيفما كان نوعه، تعزو إلينا العقول التبسيطية نسقا إجماليا ذو طابع هيغلي. والحال أن الفكر المركب لا يمكنه ولا يستهدف تطوير **نسق** للمعقولية الكونية، لأنه ملزم بأن يكون حواريا ومنفتحا ويتضمن داخله اللايقين؛ فعلى العكس، فهو يستعمل مفهوم النسق لفهم التنظيم.

من ناحية أخرى، هناك تصورات فقيرة حول التعقيد تسقط من جديد في المطبات الأدوار التي أرادت التخلص منها. ويتجه بعض الباحثين نحو البحث في الأنساق المعقدة عن «قوانين التعقيد»، متجاهلين أن مفهوم القانون لا يصلح سوى لعالم مبسط ... وكما يقول حايك (Hayek)، «إن البحث عن القوانين لا يتجاوز كونه سمة خاصة بنظريات الظواهر البسيطة وليس علامة (label) لإجراء علمي.

وبالتالي، فالمسألة لا تتعلق بالبحث عن قوانين أو نسق جديد، بل يجب دمج العقل في منهج يتيح الوصول إلى معرفة معقدة.

إن إصلاح المنهج لا ينفصل عن إصلاح الفكر، الذي لا ينفصل، في حد ذاته، عن إصلاح التعليم.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019

All rights reserved © 2019